بميوله الصهيونية، في الوقت الذي حدث فيه التغيّر الكبير في بريطانيا بعدما أحرز حزب العمال البريطاني نصراً على المحافظين، وحل كلمنت إتلي محل تشرشل.

وبعدما تولّى حزب العمال في بريطانيا، باتت حظوظ الصهيونية في اقامة الدولة اليهودية أقوى من السابق، ذلك ان سياسة الحزب، «كانت تعكس إقتناعات قوية بأن اقامة الوطن القومي اليهودي تتمشى، الى حد كبير، مع العقيدة الاشتراكية» (ص ١٥). ومع ذلك، فلم تتمكن حكومة العمال تنسيق مواقفها مع الولايات المتحدة الاميركية بشأن مستقبل الصراع العربي ـ الاسرائيلي؛ اذ قرّرت الاخيرة السير في طريق منفصل عن بريطانيا.

انتقل المؤلف، في الفصل الثاني، الى دراسة أسباب فشل الحلول البريطانية، وقرار انهاء الانتداب. ولعلّ أبرز تلك الحلول، هو خطة الاستقلال الذاتي الاداري في العام ١٩٤٦؛ تلك الخطة التي طرحتها بريطانيا في مؤتمر لانكستر هاوس، بحضور ممثلين عن جامعة الدول العربية. وازاء رفض الوفود العربية للخطة لاقتناعها بأن أي خطة تهدف الى تحقيق الاستقلال الذاتي الاداري لا بدّ وان تؤدي الى التقسيم، اضافة الى رفض مندوبي فلسطين والصهيونية حضور المؤتمر، وتعرّض بريطانيا الى نقد شديد من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية، فقد تمّ ارجاء المؤتمر، ليستأنف أعماله مجدداً في ٢١/١/١٩٤٧، دون نتيجة تذكر؛ الامر الذي أسهم في احالة الموضوع الى الامم المتحدة، وهذا ما كانت بريطانيا تحاول تجنّبه، لأسباب عدّة، في المقدّم منها، رغبتها التوصل الى حل، طالما سعت اليه خلال ثلاثين عاماً، ومحاولة الحفاظ على بعض المصالح الحيوية، خاصة بعدما بات موضوع انسحابها من الهند أمراً مطروحاً. لذا فلم يكن بامكان بريطانيا مساندة خطة التقسيم التي أقرتها الامم المتحدة؛ «وبالتالي كان عليها ان تقر ان يكون الانسحاب كاملاً، حتى يتبيّن للعرب انها لا تشترك بأي حال في تقسيم فلسطين» (ص ٦٣). وهكذا، وافق مجلس الوزراء البريطاني على خطة الانسحاب في الرابع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨.

تناول الفصل الثالث من الكتاب، فلسطين في إطار الدفاع المشترك. وذلك عبر استعراض مساعي بريطانيا والدول العربية ايجاد استراتيجية للدفاع المشترك فيما بينهما، ازاء ما يهدّد المصالح المشتركة البريطانية ـ العربية، بعد بروز دور الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية. وبيّن الفصل دور الحكومات العربية وجهودها في التوصل الى ترتيبات الدفاع المشترك مع بريطانيا، ودور حكومة بيفن، في ذلك. وأوضح الكاتب من خلال سوق المزيد من استشهاداته الوثائقية، بعض مخاوف الدول العربية من اقامة هكذا تحالف، بعدما تكشف دور بريطانيا من عدم البرّ في وعودها التي قطعتها للعرب. ورغماً عن حرص بريطانيا الظهور بمظهر الحياد، خلال الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى، ومساعي بيفن انقاذ ما يمكن انقاذه خدمة لاستمرار التحالف العربي ـ البريطاني؛ الّا ان ما شهدته المنطقة غداة الحرب العربية ـ الاسرائيلية الاولى، جاء باتجاهات معاكسة؛ «اذ عصف الغليان الجماهيري بالنفوذ البريطاني في الشرق الاوسط خلال جيل واحد، استطاعت خلاله الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ان تفيد من أخطاء بريطانيا وان يعززا وجودهما في هذا البلد العربي او ذاك» (ص ٩٧).

استعرض الفصل الرابع، أبعاد المشكلة الفلسطينية في المجالين العربي والدولي، بدءاً من التدخل الدولي لانهاء الاضراب الكبير العام ١٩٣٦، وانتهاء بقرار الامم المتحدة، الخاص بحل القضية الفلسطينية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، واعلان إقامة اسرائيل في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وتدخّل الجيوش العربية لانقاذ ما يمكن إنقاذه. وفي هذا المجال، أكد المؤلف على ان التدخل العربي في حل المشكلة الفلسطينية، كان كبيراً ومؤثراً، ذلك «ان عرب فلسطين خلال الحرب العالمية كانوا يفتقدون الزعامة، خاصة وان اللجنة العربية العليا التي تزعمت النضال الفلسطيني كانت قد اختفت من الوجود، وان رئيسها المفتي [الحاج محمد امين الحسيني] كان خارج البلاد، وقد حاول وجهاء عرب فلسطين احياء اللجنة المرة تلو الاخرى، الّا ان أنصار المفتي، الغائب، تصدّوا لأي تحدٍ لزعامته وعرقلوا مثل هذه المساعي» (ص ١٠٠).

وركّز هذا الفصل، كذلك، على التدخّلات العربية من خلال مقررات جامعة الدول العربية، الخاصة